تعلمتُ من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١)

١٣/٦/١٤٣٦هـ

الذين منَّ الله عليهم بالجلوس عند شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين (ت١٤٢١هـ) فترةً من الزمن، وإن قلّت، أو استمعوا إلى دروسه المسجّلة؛ أدركوا أنه لم يكن مجرد عالمٍ يُلقي دروسَه، ثم ينصرف إلى حيث يبدأ الدرس التالي، بل كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنموذجًا للعالم الرباني؛ الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، ويربي بفعله قبل قوله.

وهذا العلَمُ الماجدُ كُتِبَ عنه الكثير شعرًا ونثرًا، لكن الكتابة التي تُعْنى بإبراز معالم القدوة والتأسّي به لا تزال قليلة، مقارنة بما كُتب في الجوانب الأخرى، ومقارنة بمنزلته العلمية، ومكانته في الأمّة.

ولا ينبغي في ترجمة مثله أن تُختزل سيرتُه فيما يشترك معه كلُّ من له أدنى مشاركةٍ في التعليم -مِن ذِكر المولد والوفاة والأشياخ والتلاميذ والمصنَّفات- بل ينبغي تسليطُ الضوء على الجوانب الربانية ومواضع القدوة في شخصيته، فهي الأهم.

وأنا حين أكتب فلا أزعم أنني من أكثر الناس قربًا منه، أو جلوسًا بين يديه، ولا بالذي يســتطيع كتم آثار العاطفة والمحبة التي تجذّرت عروقُها فيَّ، وكان يسقيها بماء النصح والتوجيه، والرعايةِ الأبوية لتلميذه الصغير، من خلال علاقةٍ امتدت أكثر من عشر سنوات، كلا، لكنني أظنّ أن تلك السنوات أضحتْ مشجِّعةً على الكتابة عن بعض تلك المعالم المؤثّرة، التي يلمســها كلُّ من عاشره، وتتلمذ له، ولحظَ مفاتيح التميز في شخصيته، لعل الله تعالى أن ينفع بها، وهي إشــارات فحسب؛ إذْ التفصيل والبسط لا تناسبه أمثال هذه المقالات.

ولعلي ألخص هذه الوقفات في المعالم الآتية:

المعْلمُ الأول: وضوح الهدف:

فلقد كان الهدف الأكبر عند شــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو طلبُ العلم وتعليمُه، واضحًا في نفســه من بواكير شبابه، ظهر ذلك في مواقف كثيرة، لعل من أشــهرها: اســتعفاؤه من القضاء حين عُرِضَ عليه من قِبَلِ مفتي الديار الســعودية في وقته الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣٨٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ وألحّ على شــيخنا في ذلك، بل أصــدر قراره بتعيينه رئيسًــا للمحكمة الشرعية بالأحســاء، فطلب منه الإعفاء، وبعــد مراجعات واتصالات سَمح المفتي بإعفائه من منصب القضاء.

ولا أحســب هذا الموقف من شــيخنا إلا لأنه يرى أن للقضاء -مع شرف مكانته- تبِعةً قد تشغله عن هدفه الذي رسمه لنفسه -وهو تعليم العلمِ الذي بذل جهدَه في تحصيله- والعلم يحتاج إلى تفرّغ كثير، وصفاءً في الذهن، لا يتأتّى في الغالب للمنشغل بالقضاء.

ومن ذلك: أنه لما ازدادت شـــهرتُه -خصوصًا بعد ســـنة ١٤٠٠هـ- وكثر قاصدوه من الآفاق؛ تخفّف من إلقاء المحاضرات العامّة جدًّا، وركّز على دروسه العلمية في الجامع، وصار لا يشارك إلا في حضور مناسبات تكريم حفّاظ القرآن في منطقة القصيم فقط، اللهم، إلا إن وافق ما سبق وجـــوده في اجتماعات هيئة كبار العلماء في الطائـــف والرياض، أو وافق وجوده في مكة المكرمة، كل ذلك انجماعًا منه على دروســـه، وتركيزًا على تحقيق هدفه الذي عاش من أجله.

وثمـــرةُ هذا المعْلم ظاهرةٌ جلية في حياتـــه، تمثلت في أكثر من ٥٠٠٠ ســـاعة صوتية -فضلًا على ما لم يُســـجل من قبل أو ضاع-، استثمرت لاحقًا في تزويد قناة فضائية حملت اســـمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إضافة إلى انتفاع عدد كبير من طلاب العلم -من مختلف بلدان العالم- الذين تخرّجوا به، ونفع الله بكثير منهم.

إن هذا المعْلم في شخصية شـــيخنا -رحمه الله- قد يَغيب استحضارُه عن بعض طلاب العلم، وهو في بدايات حياته ونشاطه، فقد يبدأ في كلية شرعية، بل قد يتخرج فيها، والهدف عنده غيرُ واضح، فتذهب عليه زهرةُ عمره في التنقـــل بين مجالاتٍ خيرية متنوعة، وهي وإن كانت فاضلة؛ إلا أنها لا تزال تَنْحتُ من شـــجرة زمانه، وتَذْهَبُ أيامُه وهو لم يبرز في سبيلٍ من هذه السُّبل، مع قدرته على التميّز.

أعرفُ أحدَ طلاب العلم -وهو من طلاب شـــيخنا- ممن حدّد هدفَه بطلب العلم، عرَضَـــتْ عليه عددٌ من الجهات الخيريـــة إغاثية، وتعليمٍ للقرآن، وأمثالها- عرضت عليه الانضمام لها؛ فاعتذر، فسُئل عن السبب؟

فقال: حدَّدتُ هدفي مبكّرًا، وليس لديّ من الوقت والقُدُرات ما يمكنني معـــه القيام بها جميعًا، فاخترتُ ما حُبّب لي مـــن طلب العلم، والرغبة في تعليمه ونشره، فتحقق له ذلك فيما أحسب.

والعِبرة من هذا المعْلَم في شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أن يحدِّد الإنســـانُ هدفَه مبكّرًا، وينظر في المجـــالِ الذي يُتقنه، ويبدعُ فيه، وليصحّح النيةَ في نفع نفســـه وأمته، وليبشر بالتوفيق، وصدق الله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[الأعراف:١٦٠].